الملتقى الفكري للإبداع

ظاهرة الإعجاب بـــ "النموذج التركي" في الخطاب السياسي العربي

دراسة تحليلية

ورقة قـــدمت إلى ندوة:

النموذج التركي والمجتمعات العربية: الخصوصيات وإمكانات الاستلهام،

المنعقدة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة في ٢ أكتوبر ٢٠١٠، ونظمها مركز الشرق للدراسات الإقليمية والاستراتيجية.

أوضحت هذه الدراسة عمومية الإعجاب بالنموذج التركي، الذي شمل مستويات عدة على اختلافها، وتنوعت عوامل الجذب التي مثَّلت قيمًا إيجابية يطمح إليها المعجبون، مثل التحول الديمقراطي والإسلام المعتدل، والصيغة المتوازنة للعلاقة بين الدين والدولة، والبرغماتية السياسية التي تحقق مصالح عامة، والانفتاح الإيجابي على العالم وغير ذلك. لكن تنوعت المقاربات للتجربة التركية، التي انطبعت بالخلافات السياسية والأيديولوجية، بحسب اختلاف الناظرين، بين مقاربة سياسية واستراتيجية تقرأ التجربة بما هي عليه، ومقاربات فكرية وأيديولوجية تقرأ التجربة بما تمثله لها وفق مرجعيتها هي وزاوية القراءة. لكن يمكن القول إن ثمة إحساسًا عامًّا بالافتقار إلى مثل تلك التجربة، بالرغم من إدراك خصوصياتها وعدم ملاءمة نسخها أو نقلها لأسباب عديدة..

معتز الخطيب

ظاهرة الإعجاب بـــ "النموذج التركي" في الخطاب السياسي العربي دراسة تحليلية

مقدمة:

شهدت السنوات الماضية كتاباتٍ كثيفةً جدًّا حول تركيا وسياساتها وما يجري فيها، وعن تاريخ "الإسلام السياسي" فيها، وعن تجربة "حزب العدالة والتنمية" الذي أصبح ملء السمع والبصر اليوم [1]. وقع ذلك في ظل الانتصارات التي حققها هذا الحزب بزعامة رجب طيب أردوغان، سواءٌ في الانتخابات سنة (٢٠٠٢م) وسنة (٢٠٠٧م)، أم في السياسات الداخلية والخارجية.

والمثير للتأمل – بجدية – ذلك التقديرُ الإيجابي (العامُّ) للانتخابات التركية ونتائجها التي مكَّنت "حزب العدالة والتنمية" ذا الخلفية الإسلامية من الإمساك بزمام السلطة بشِقّيها: رئاسة الحكومة ورئاسة الدولة، في جمهورية أتاتورك العلمانية العَتِيَّة. فحتى أولئك الذين يقفون على خصام مع "الفكرة الإسلامية" حارت عقولهم في هذه "المفارقة التركية" ذات الوجهين: الوجه الأول: أن البلد الإسلامي الوحيد الذي أعلن علمانية دولته رسميًّا منذ البداية، وطوَّر أيديولوجية علمانية صريحة – وفق النموذج الفرنسي – هو نفسه الذي أوصل حزبًا سياسيًّا ذا خلفية إسلامية إلى السلطة عبر انتخابات ديمقراطية سلمية وسَلِسَة، اعترف العالم أجمع بشرعيتها ونزاهتها [2]. ووجه المفارقة الثاني: تساؤل ينطوي على دلالات عدة، يطرحه علي حرب قائلاً: "كيف تَمكّن حزبٌ سياسي ذو خلفية دينية وأصول إسلامية أن يقود تركيا بنجاح

[1] صدر العديد من الكتب بالعربية في السنوات الخمس الماضية، منها: مجموعة مؤلفين، الجراحة التجميلية للعمل الإسلامي: قراءة في تجربة حزب العدالة والتنمية التركي، الأردن، مركز دراسات الأمة، ٢٠٠٤م، وإدريس بووانو، إسلاميو تركيا.. العثمانيون الجدد، دمشق: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٥م، وعبد الحليم غزالي، الإسلاميون الجدد والعلمانية الأصولية في تركيا، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧م، وياسر أحمد حسن، تركيا.. البحث عن مستقبل، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧م، و حميد بوزرسلان، تاريخ تركيا المعاصر، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٩م، ومجموعة مؤلفين، الإسلامية التركية، دبي: مركز المسبار، ٢٠٠٩م، ومجموعة مؤلفين، تركيا بين تحديات الداخل ورهانات الخارج، بيروت: الدار العربية للعلوم، ط١، ٢٠١٠م، وسهيل صابان، تطور الأوضاع الثقافية في تركيا، بيروت: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠١٠م. وستأتي الإحالة إلى كتب أخرى في هذه الورقة لاحقًا، فضلاً عن الدراسات والمقالات التي لا تُحصى.

[2] انظر: صادق جلال العظم، الدولة العلمانية والمسألة الدينية: تركيا نموذجًا، صحيفة الأوان الكويتية، ٢٣ مايو، ٢٠١٠م.

ملحوظ في نظر العالم، وفي أكثر القضايا والشؤون: في السياسة والتربية، كما في الاقتصاد والأمن، سواء على مستوى الداخل أو من حيث العلاقة مع الخارج؟" [٣].

عموميةُ ذلك التقدير (الذي سميته في العنوان: الإعجاب) جاءت من مختلف الأطراف السياسية والفكرية في العالم العربي، بل والشعبية كذلك، حتى "باتت تجربة هذا الحزب في البناء والتحديث مادةً للتأمل والتدبر، خاصةً من جانب العرب والمسلمين، الذين يهتمون بتحليل أبعادها ودلالاتها؛ لاستخلاص دروسها وعِبَرِها" [٤].

وقد بلغ من شيوع التقدير للتجربة التركية الجديدة أنني وقفتُ على سيلٍ من الكتابات الصحفية والبحثية المعجَبَة، في حين أن البحث عن نقائضها يَعسر حتى لا يكاد يوجد سوى مقالاتٍ معدودة وهامشية، الأمر الذي شكَّل "ظاهرة" حقيقية استحقت الدرس والمتابعة في هذه الورقة المتواضعة.

بقي من مفردات عنوان هذه الورقة تعبير "النموذج"، ويَصعب التحديد الدقيق لتاريخ استعماله، ولكن من المفيد التذكير بأن فرانسيس فوكوياما كان قد تحدث في ديسمبر ٢٠٠١م عن أن الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي لها إشكالية مع العالم الغربي الحديث، داعيًا الدول الإسلامية إلى تبني النموذج التركي العلماني، وكذلك فعل بول ولفويتز في محاضرة له في مارس ٢٠٠٢م [٥].

وقد وقعت الإشارة إلى فحوى النموذج التركي العلماني الناجح في التقرير الأمريكي الصادر عن مؤسسة راند [٦]، وحين تمت مناقشة المسألة في الندوة المغلقة التي عُقدت في القاهرة في مارس ٢٠٠٤م [٧]، أبدى بعض الأتراك قناعة بفكرة النموذج التركي الديمقراطي، لكن السفير مورات بيلهان (مدير مركز الدراسات الاستراتيجية التابع للخارجية التركية) قال: "إن تركيا لا تسعى لتقديم نفسها كنموذج للمنطقة، ولكن أمريكا هي التي تسعى لتقديمهم كنموذج ..." [٨].

---

[٣] علي حرب، تواطؤ الأضداد: الآلهة الجدد وخراب العالم، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٠٨م، ص٢٤٩.

[٤] علي حرب، تواطؤ الأضداد، مرجع سابق، ص٢٤٨. ويتحدث صادق جلال العظم في مقاله المشار إليه سابقًا عن عمومية وقوة تأثير "التجربة التركية العلمانية" المباشرة في العالم العربي وقواه السياسية، وتياراته الفكرية، ونخبه الاجتماعية، وفعالياته الاقتصادية.

[٥] فوكوياما في مقال له في مجلة "نيوزويك"، ومحاضرة بول ولفويتز ذكرها: جلال ورغي، الحركة الإسلامية التركية: معالم التجربة وحدود المنوال في العالم العربي، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٠، ص٧٩.

[٦] **Cheryl Benard, Civil Democratic Islam: Partners, Resources and Strategies,** Rand Corporation, 2003, P 26.

[٧] نظمها مركز البحوث والدراسات السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة، مع مركز الدراسات الاستراتيجية بوزارة الخارجية التركية (٢٢-٢٣ مارس ٢٠٠٤م) تحت عنوان: (الشرق الأوسط بعد أحداث ١١ سبتمبر: رؤى مصرية وتركية).

[٨] انظر تقريرًا عن تلك الندوة في: مُحَمَّد جمال عرفة، كيف يرى المصريون والأتراك "الشرق الأوسط الكبير"؟، منشور على موقع إسلام أونلاين في ٣٠-٣-٢٠٠٤م.

وأيًّا ما يكن الأمر، فمن المؤكد أن تعبير "النموذج التركي" أصبح الأكثر شيوعًا في سياق الحديث عن تركيا حزب العدالة والتنمية، وإن كنا قرأنا – على قلةٍ – تعبيراتٍ أخرى مثل "العصر التركي"، و"العثمانية الجديدة"، وغير ذلك.

ومن الضروري هنا توضيح معنى "النموذج" وما المراد بالنَّمْذَجَة، ذلك أنها قد تعني التَّمَثُّل والسعي إلى المحاكاة أو النقل والاستنساخ، وقد تعني أنها تجربة ناجحة تستحق الإعجاب، مع إدراك أوجه الخصوصية والسياقات المحلية، لكن يتم الاستدلال بالنموذج هنا والاحتكام إليه للبرهنة على صحة فكرةٍ ما، أو أنه يمكن استلهامه جزئيًّا. والمعنيان غير متلازمين في الخطاب السياسي العربي، لكن الغالب سَوْقُ النموذج التركي على المعنى الثاني، وفي سياق السجالات الفكرية والسياسية لدى الأطراف المختلفة مما سنوضحه لاحقًا.

أولاً: ظاهرة الإعجاب: مستوياتها وسياقاتها ومكوّناتها

الثابت – على وجه الدقة – أن مجيء حزب "العدالة والتنمية" إلى السلطة (٢٠٠٢م) ولّد كل هذا الاهتمام والكتابات عن تركيا في العالم العربي من شرائح مختلفة، حتى إن البعض [٩] تحدث عن أن "تركيا تثير إعجاب النخبة والأنظمة العربية على حدٍّ سواء"، وأن سنة ٢٠٠٢م سنة فاصلة بين ما قبل وما بعد، وهو ما أكدته دراسة رأت أن صورة تركيا السلبية بدأت تتغير في ٢٠٠٣ أو بعدها [١٠]. وما من شك أن هذا التحديد سيُفيدنا في الإمساك بالسياقات التي شهدت بروز النموذج، وحققت له تلك الجاذبية العمومية في العالم العربي.

بدا العالم العربي بعد أحداث ١١ سبتمبر كأنه مرشَّحٌ للفتك، فقد انهار ما سُمي بعملية السلام سنة ٢٠٠٠م وتدهوَر الوضع الفلسطيني وتراجعت أولوية القضية الفلسطينية، بل إن إدارة بوش الابن لم تكن تبالي بعملية سلام فلسطينية إسرائيلية، ثم جاء الاجتياح الأمريكي للعراق سنة ٢٠٠٣م فزَلْزَل العقول والقلوب في المنطقة، كما زلزل النظام والدول العربية، وتعمقت الانقسامات العربية بين معسكري ما سُمي بالاعتدال والممانعة. وقد أدى انهيار النظام في العراق إلى توجيه الأنظار إلى مسألة "الشرعية" التي تعاني منها الأنظمة العربية فبدا الوضع مُخَلخَلاً، وتعمق الشعور بالأزمة الكبرى داخليًّا وخارجيًّا. بل إن الأمر "لم يقف عند حدود تغيير الخرائط السياسية، ولكنه شمل أيضًا بعض القيم السائدة" [١١]،

---

[٩] مُحَمَّد نور الدين، من جورجيا إلى قمة دمشق إلى بريفان .. النموذج التركي يستكمل نفسه، مقال منشور بتاريخ ١٠ سبتمبر ٢٠٠٨م، على موقع: www.swissinfo.ch

[١٠] انظر: مليحة بنلي التونيشيك، كيف ينظر العرب إلى تركيا؟ (١) التغييرات في وجهات النظر العربية، ترجمة نسرين ناضر، صحيفة النهار اللبنانية، ٢٠-٦-٢٠١٠.

[١١] فهمي هويدي، تركيا نموذج لمكر التاريخ، صحيفة الشروق المصرية، ٣١ مايو ٢٠١٠م.

كالمقاومة، والتطبيع، والاستتباع لأمريكا، والقواعد العسكرية الأجنبية، والأمن القومي العربي، وفكرة التحرر الوطني، التي أصبحت كلها محلّ خلاف ووجهات نظر!.

ضَعف قدرة الدول العربية على معالجة المشكلات الإقليمية كقضيتي فلسطين والعراق، وفشلُ الولايات المتحدة الأمريكية (بإدارة بوش الابن) في خَلق نظام شرق أوسطي متماسك، أظهر فراغًا سلطويًّا وأيديولوجيًّا إقليميًّا، فظهرت قوى جديدة تملؤه، فظهرت إيران قوةً إقليمية حققت مكاسب كبرى من غزو العراق حتى قيل: إنها كانت المستفيدَ الأكبر من غزو العراق، وظهرت تركيا قوةً إقليمية بعد أن لم يكن يُنظر إليها على أنها عضو مهم في النظام الإقليمي الصاعد وسط النقاش الذي كان يدور حول النظام الشرق الأوسطي الجديد في التسعينيات بعد نهاية الحرب الباردة.

لم يكن هذا (السياق العربي) المفعم بالإحساس بالأزمة – وحده – المؤثِّر في تَخَلُّق جاذبية النموذج التركي، فقد أثرت سياسات تركية معينة في تغيير صورة تركيا لدى العرب وتَطَلُّع الأنظار إليها باعتبارها نموذجًا مضيئًا في وسط التردي العربي العام. من تلك السياسات: القرار الذي اتخذه البرلمان التركي في آذار ٢٠٠٣م برفض تدخل تركيا في الاجتياح الأمريكي للعراق، الأمر الذي بعث بثلاث رسائل لدى المستقبِل العربي: الأولى أن الصورة النمطية عن تركيا "التابعة لأمريكا" تغيرت، والثانية: الممارسة الديمقراطية الحرة في مواجهة أمريكا، والثالثة: أن تركيا بدت "وطنية" أكثر من بعض الأنظمة العربية التي ساهمت أو سهّلت غزو العراق.

ومن تلك السياسات والمواقف: رَفْضُ أردوغان استضافة شارون في أنقرة ثم وَصفُه لإسرائيل بالدولة الإرهابية؛ لاغتيالها الشيخ أحمد ياسين في مارس ٢٠٠٤، وموقف تركيا من الحرب الإسرائيلية على غزة ٢٠٠٨م وتوجيه أردوغان انتقادات عنيفة لإسرائيل، وردّ فعل أردوغان في المؤتمر الاقتصادي العالمي (دافوس) ٢٠٠٩م والكلام الغاضب الذي قاله للرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز خلال جلسة نقاش حول غزة، ومؤخرًا تسيير تركيا أسطولَ الحرية لفك الحصار عن غزة وما استتبع ذلك من أحداث ومجريات حققت فيها تركيا مكاسب إعلاميّة وسياسيّة كبيرة، وهي مواقف تبعث برسالة إلى المستقبِل العربي بأن تركيا الحليفة لإسرائيل تَغَيرت، وأنها تتبنى قضيَّته في الوقت الذي يتخاذل فيه عنها قادة دول عربية كبرى!.

بالإضافة إلى تلك المواقف "بدا أن السياسة الخارجية التركية تَطورت في اتجاهٍ لَقِي ترحيبًا إيجابيًّا في المنطقة بشكل استطاعت فيه تركيا أن تُحدِث تَحوُّلاً في علاقاتها الإشكالية مع جيرانها الشرق أوسطيين، وشددت على الديبلوماسية والحوار والتكافل الاقتصادي في انخراطها مع المنطقة، كما أصبحت تركيا أكثر تَلَهُّفًا لتأدية دور الطرف الثالث في

النزاعات الإقليمية، ويُنظَر إليها – بشكل عام – على أنها فاعل محايد وبنَّاء" [١٢]، هذا التحول السياسي في تركيا، مضافًا إلى التحول الاقتصادي الداخلي، والممارسة الديمقراطية التركية التي تتوق إليها المنطقة العربية، غيَّر النظرة السلبية القديمة إلى تركيا، ووفَّر لها أسباب الجذب بوصفها نموذجًا.

وعندما نتحدث هنا عن الإعجاب بـ"النموذج التركي"، لا بد من التدقيق في سؤال يبدو مستترًا إلى حدٍّ ما، وهو: هل الإعجاب الذي تهبّ رياحه على المنطقة العربية هو بتركيا أم بحزب العدالة والتنمية الحاكم وأفكاره وسياساته؟. فربما وقع الدمج بين الاثنين، وربما تحدثت كتاباتٌ عن تركيا وهي تعني "الحزب" على وجه الخصوص، ولكنني أعتقد أن تحديد الموقف من السؤال سيساعد على فهم طبيعة المقاربات المختلفة للنموذج التركي المتكلَّم عنه، والتي سنبحثها لاحقًا. وأعتقد أنه يمكن لنا أن نميز هنا بين ثلاثة مستويات من الإجابة، المستوى الأول: مستوى الغموض أو الدمج بين تركيا والحزب، لأن الإعجاب ينصبّ على مواقف وسياسات محددة من دون تحديد طبيعة هذا الإعجاب، وهو ما يمكن أن ينسحب على الأنظمة المعجَبة والمواقف الشعبية العربية. والمستوى الثاني: هو الإعجاب بتركيا ومسيرتها الكلية المتطورة، وهو ما يمكن أن ينسحب على النخب العلمانية العربية؛ لأن القول بإسلامية الحزب يُربك تصوراتها وأفكارها، ويُحدث قطيعةً مع التراث العلماني التركي. والمستوى الثالث: هو الإعجاب بحزب العدالة والتنمية حصرًا، بوصفه حزبًا إسلاميًّا يشكّل رافعةً مضيئةً للحركة الإسلامية العربية، ويُنعش الفكرة الإسلامية.

لكن أليس تعيينُ تاريخ تَغَيُّر نظرة العرب إلى تركيا، وتحديدُ تلك السياسات والمواقف التي شكَّلت عوامل جذب – وكلها في عصر "حزب العدالة والتنمية" أو ما سماه بعضهم بالعصر التركي وآخرون بالعثمانية الجديدة – يحملُ على الإعجاب بهذا الحزب وحدَه، خصوصًا أن استطلاع الرأي الذي أجرته "مؤسسة زغبي إنترناشونال" في آذار ونيسان سنة ٢٠٠٢م أظهر – بوضوح – أن صورة تركيا لدى الرأي العام العربي كانت سلبية إلى حد كبير [١٣]؟. في الواقع الإجابة تنطوي على مخاطرة، بين اعتبار الحزب استمرارية لتراث سابق، وبين قطعه عن سياقه التاريخي وصيرورته التي ساهمت في تَشَكُّله بعد تلك المخاضات التي مرّ بها، والأهم من ذلك أنها قد تُوْقِع في إيحاء أيديولوجي ينحاز لإحدى المقاربات المصطرعة على قراءة النموذج، وقد جاء التمييز بين تلك المستويات في الإعجاب لاستيضاح وتمييز الإعجاب العامّ غير المؤدْلَج، من الإعجاب المؤدلج، إسلاميًّا كان أم علمانيًّا.

فيما يخص الإشارة السابقة حول إعجاب الأنظمة العربية أو بعضها بتركيا، فهو يتأسس على السياسة الخارجية التي انتهجها "حزب العدالة والتنمية"، والتي حوّلت تركيا من دولة مجاورة كانت تعطي الأولوية إلى الوسائل العسكرية، وتُوَازن

[١٢] مليحة بنلي التونيشيك، كيف ينظر العرب إلى تركيا؟ (١)، مرجع سابق.
[١٣] انظر: مليحة بنلي، المرجع السابق.

التهديدات عن طريق التحالفات مع أمريكا وإسرائيل خلال عقد التسعينيات، إلى دولة منخرطة في المنطقة تنتهج الديبلوماسية والحوار، وتدخل في عمق المجال الحيوي لتركيا على الصعيد الجغرافي والحضاري والتاريخي. كما أن تجاوزها لمنطق الاستقطابات أهَّلها لممارسة دور الوساطة في بعض مشاكل المنطقة العربية، فأردوغان لم يرفض أن يكون طرفًا في الخلافات العربية فحسب، بل سعى لإقناع الأنظمة العربية بأنه يسعى لتخفيف وطأة تلك الخلافات على الواقع العربي وقضايا المنطقة، وهو ما يفسر دعوته إلى القمة العربية في الخرطوم سنة ٢٠٠٦ ثم الرياض سنة ٢٠٠٧ لأول مرة في تاريخ العلاقات العربية التركية بعد أن تم انتخاب التركي أكمل الدين إحسان أوغلو أمينًا عامًّا لمنظمة المؤتمر الإسلامي سنة ٢٠٠٥.

"فالأنظمة العربية تبدي إعجابًا بالتقدم التركي وانتشار الدور، ليس للاستفادة منه بل تعويضًا عن تهاون وضعف في الإرادة لا الإمكانيات، ورغبة في موازنةٍ عجزوا عن تحقيقها ضد ما اعتبروه (العدو الإيراني) فاستجاروا بالجار التركي والقوة التركية الصاعدة" [١٤]، التي تُشيع رؤيةً تركز على منطقة مستقرة، وتقوم بدور بنَّاء في النزاعات الإقليمية، وبرهنت على قدرتها على معالجة المشكلات، وقوة تأثيرها.

أما الإعجاب الشعبي فقد أكدته استطلاعات رأيٍ، منها ذلك الاستطلاع الذي تمّ بعد حرب غزة ومسألة دافوس في تموز ٢٠٠٩م، وأجرته "المؤسسة التركية للدراسات الاقتصادية والاجتماعية" (تيسيف) في سبعة بلدان عربية، الذي أظهر إعجابًا بتركيا، وأن الرأي العام يعتبرها فاعلاً أساسيًّا تلقى آراؤه آذانًا صاغية، ويمارس تأثيرًا، ويدعم فكرة أن تؤدي تركيا "دورًا أكبر في العالم العربي"، وأنها تشكل "نموذجًا" له [١٥]، ومن المهم هنا فهم "العوامل المحدِّدة للرأي العام العربي حول العلاقات الخارجية"، وهو عنوان دراسة رأت أن "الجماهير العربية تقوِّم البلدان غير العربية بالاستناد – في شكل أساسي – إلى ممارساتها الحديثة نسبيًّا في السياسة الخارجية في مختلف أنحاء الشرق الأوسط" [١٦]، وهذا ما يعطي قيمة مؤثِّرة للمواقف التي ذكرناها سابقًا لأردوغان ويفسر شعبيته المتزايدة.

وحين نتحدث هنا عن "الإعجاب الشعبي" بالنموذج التركي، لا ينبغي أن نغفل عن تأثير العوامل غير السياسية، فطريقة التغطية الإعلامية لأخبار تركيا تلعب دورًا كبيرًا هنا، وقد قامت قناة الجزيرة بدور مؤثر في هذا المجال وخاصة في موضوع "أسطول الحرية"، كما أننا لا بد أن نستحضر هنا بعض مكونات "القوة الناعمة" التي راحت تتشكل للنموذج التركي في

---

[١٤] محمَّد نور الدين، من جورجيا إلى قمة دمشق، مرجع سابق.

[١٥] انظر: مليحة بنلي التونيشيك، كيف ينظر العرب إلى تركيا؟، مرجع سابق. وثمة استطلاع آخر أجرته "مؤسسة زغبي إنترناشونال" في نيسان – أيار سنة ٢٠٠٩م حظي فيه أردوغان بشعبية لم تكن له في استطلاع سابق سنة ٢٠٠٨م.

[١٦] RUSSELL E. LUCAS, Determinants of and PETER A. FURIA Arab Public Opinion on Foreign Relations, International Studies Quarterly (٢٠٠٦)، ٥٠، P٥٨٦.

مثل موجة الدراما التركية التي انتشرت عبر الفضائيات العربية بدءًا من سنة ٢٠٠٦م وحققت شعبية كبيرة، وتركت تأثيرًا على معدل السياحة العربية في تركيا، مما دفع أحد كتّاب مجلة "فورين بوليسي" إلى القول: إن الدراما التركية أثبتت أن كسب قلوب من يعيش في العالم الإسلامي ليست مهمة مستحيلة، فقد نجحت أنقرة في تحقيق ما أخفقت الولايات المتحدة في إنجازه على مدى نحو ٧ عقود من بدء علاقتها رسمياً مع العرب [١٧].

ولكن ما توفر للنموذج التركي لن يتوفر للنموذج الأمريكي لعوامل عديدة ومركبة لا تقتصر على البعد السياسي، بل تشمل الديني أيضًا، وهو ما تجلى في إصدار مجموعة من علماء الدين المسلمين بيانًا حثوا فيه المسلمين على دعم تركيا إعلاميًّا واقتصاديًّا، ودعَوا فيه "الشركات والمؤسسات ورجال الأعمال إلى الاستفادة من إمكانات تركيا الاقتصادية في مجال التصنيع والبناء وغيرها، ومنحها معاملة تفضيلية أولوية، إعمالاً للنصوص الشرعية الآمرة بالتعاون على البر والتقوى، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والتعارف، وسعياً لتحقيق جانب ذي أهمية كبيرة في مشروع النهوض والتشكل الحضاري الذي يسترشد بالماضي، ويستعيد روح التواصل والإخاء التي كانت تحكم العلاقة بين شعوب المسلمين". كما دعَوا السياح المسلمين إلى اعتبار "تركيا وجهة ذات أولوية لمن قرر السفر، حيث المساجد والآثار التاريخية العريقة، والطبيعة الخلابة، والتحولات الواقعية الإيجابية التي لا تخطئها العين، وخاصة بعد رفع تركيا تأشيرات الدخول مع عدد من الدول العربية" [١٨].

لكن يشير فهمي هويدي إلى عناصر أخرى أسهمت بأدوار مختلفة في صناعة ذلك النموذج، وهي: المجتمع التركي الذي يتمتع بحيوية جعلته حاضرًا ومساهمًا بشكل فعال في محاولات النهوض وصناعة التقدم، ونظام الوقف الإسلامي الذي كان له دور المحرّك لتلك الحيوية التي لازمت التاريخ التركي في مراحله السلجوقية والعثمانية والجمهورية، إذ عبر ذلك التاريخ الممتد لنحو عشرة قرون كان للجماعات الأهلية المختلفة (كالقادة الروحيين، والحرفيين، والتجار وغيرهم) مؤسساتها الوقفية، والهمة العالية التي تعمل بها البلديات [١٩]، والإشارة إلى هذه العوامل المجتمعية ضرورية حتى لا نُحوِّل

[١٧] Nadia Bilbassy, Leave it to Turkish soap operas to conquer hearts and minds, April 15, http://mideast.foreignpolicy.com.

[١٨] صدر البيان بتاريخ ١٧-٦-٢٠١٠، بتوقيع نحو ثلاثين شخصية على رأسهم: د. يوسف القرضاوي، ود. محمد عمارة، والشيخ عبد الله بن بيه، والشيخ سلمان العودة، والشيخ محمد الحسن الددو، ورئيس اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا شكيب بن مخلوف ود. عصام البشير.

[١٩] انظر: فهمي هويدي، الصعود التركي ليس معجزة، الجزيرة نت، ١٥-١٢-٢٠٠٩م.

المجتمع – في تحليلنا – إلى مجرد متلقٍ وغير فاعل في صناعة النموذج، كما أن "اهتراء النموذج الكمالي" [٢٠] أفسح المجال لبروز نموذج آخر متجاوز ومستجيب للتطورات الجديدة.

وفي تقديري أن هذه العوامل كلها مجتمعة كانت وراء تَخَلُّق شعبية النموذج التركي على المستويين الشعبي والرسمي، وهي ما دفعني إلى تحديد معنى الإعجاب بأنه مجمل وغير مُسَيَّس بالمعنى الأيديولوجي كما سنجده لدى النخبة الفكرية والسياسية.

ثانيًا: عوامل الجذب بين الداخل والخارج

لم يكن السياق – وحده – الفاعلَ في عملية "النَّمْذَجة" تلك، فقد وُجدت عواملُ ومعالمُ ذاتية متعددة شكَّلت قيمًا ومعايير أدت إلى القول بالنموذج، ولكن هذه القيم والمعايير اختلفت بحسب الناظرين أو المعجَبين، ولذلك سنحاول هنا تحديد معالم النموذج وبَلْوَرة نقاط القوة والجذب فيه، بعد أن حلَّلنا عوامل تَشكُّل الإعجاب وروافده.

تَرَكز إعجاب بعض الكتَّاب على مسائل تركية خارجية، في حين تَركز إعجاب بعض آخر على مسائل تركية داخلية، وجادل آخرون بأن نجاحات النموذج خارجيًّا لم تكن لتحصل إلا بعد النجاحات الداخلية. كما تفاوتت نقاط الجذب بين مسائل سياسية وأخرى فكرية، ولست معنيًّا هنا في هذا المحور باختلاف المقاربات ومداخلها وخلفياتها، وإنما يَشغلني تجريد القيم الإيجابية التي تم الإعجاب بها، مع قطع النظر عن مدى وجودها وكيفية الاستنتاج ونحو ذلك مما سيكون محلُّه المحور الآتي. وعليه فيمكن تحديد المسائل التالية التي يدور عليها الحديث حول النموذج التركي في الكتابات العربية:

١ – التحول الديمقراطي والدمقرطة:

شكَّل التحول الديمقراطي الذي سمح لحزب العدالة والتنمية ذي الخلفية الإسلامية بالوصول إلى قمة السلطة في تركيا العلمانية، محطَّ انبهار وإعجاب من قِبَل مختلف التيارات، حتى لقد شكلت نقطة اتفاق ونقطة مركزية لدى الجميع في تَمَيز النموذج، فقد جاء الحزب بأغلبية شعبية قوية استقطبت فئات مختلفة وواسعة شملت الفئات المحرومة والمهمشة، ولم "ينخرط الحزب في اللعبة الديمقراطية بعقلية تداولية" فحسب، بل ساهم في إرساء إصلاحات ديمقراطية وتعديل بعض

[٢٠] قدم هاينتس كرامير قراءة معمقة لما أسماه "اهتراء النموذج الكمالي" في كتابه: تركيا المتغيرة تبحث عن ثوب جديد، تعريب فاضل جتكر، الرياض: مكتبة العبيكان، ط١، ٢٠٠١م، ص١٧-١٦٤.

القوانين لأجل ذلك، وواجه محاولات الجيش في وأد تجربته باللجوء إلى الناخبين بممارسات ديمقراطية، وتبنى في برنامجه تأمين الحريات العامة، حتى أصبحت حكومة تركيا اليوم حكومة الأكثرية الديمقراطية المستقرة [٢١].

٢ – الإسلام المعتدل

حققت تلك الممارسة والإصلاحات الديمقراطية "سمعةً حسنةً للإسلاميين"، حتى ذهب البعض إلى القول: "ليس هناك نموذج ناجح للإسلام المعتدل في السلطة حتى الآن غير حكومة حزب العدالة والتنمية في تركيا ... وهي حكومة تتوافر فيها الشروط المطلوبة في شكل مثاليّ"، بمعنى أنها ليست حكومة عميلة، وهي منتخَبَة ديمقراطيًّا، وتملك مصداقية لدى المجتمع الدولي والغرب والمسلمين وكثير من الإسلاميين، كما تملك زعيمًا كارزميًّا [٢٢]، فالحزب قدم "صورة عن الإسلام أكثر إيجابية ونفعًا وأقل استفزازًا"، وقادته "نجحوا في تقديم الإسلام إلى العالم قوةَ تحديث وتنمية وديمقراطية ونزاهة" [٢٣]. فهذا الإسلام منسجم مع الديمقراطية فكرًا وممارسةً، ومع قيم الحداثة؛ لذا نُظر إلى النموذج التركي على أنه ريادي لجهة علاقة الإسلام بالحداثة[٢٤]؛ لأن قادته ركزوا "جهدهم على تأصيل فكر الحداثة في الساحة الإسلامية من قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان والمجتمع المدني مع صبغة صوفية هي من تراث البلد" [٢٥].

ومن المفارقة أن صورة هذا "الإسلام المعتدل" سعت أمريكا إلى تسويقه نموذجًا للعالم العربي في عهد بوش الابن، كما أن أوباما اختار تركيا أولَ دولة إسلامية يزورها، "وتحدث عنها باعتبارها ممثلة للإسلام المعتدل الجامع بين تقاليد الدولة العصرية والديمقراطية ومواريث الحضارة الكبرى القوية والمنفتحة"، ما يؤكد – مع مسائل أخرى – تَحولَ تركيا التي كانت ممثلة للعلمانية القصوى دولةً ودورًا، إلى تمثيل الإسلام المعتدل [٢٦].

لكن لا بد من التنبيه هنا إلى مسألتين:

---

[٢١] نجد التركيز على الديمقراطية في كل الكتابات التي تحدثت عن النموذج التركي، على تفاوت توجهاتها وخلفياتها، على سبيل المثال نذكر كتابات كلٍّ من: صادق جلال العظم، وعلي حرب، وفهمي هويدي وراشد الغنوشي، ورضوان السيد. وقد اعتبر بعضهم "الخيار الديمقراطي" من "معالم الأنموذج التركي". انظر: عبد الله تركماني، الإسلام والحداثة السياسية في التجربة التركية، ضمن كتاب جماعي: الإسلاميون والحكم في البلاد العربية وتركيا، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٦، ص٤٠٤، وحسن أبو نعمة، النموذج التركي: إسلام ديمقراطي عصري، صحيفة الغد الأردنية، ٩–٩–٢٠٠٧م.

[٢٢] رضوان السيد، تركيا على مفترق طرق: الدولة العلمانية العتيقة أم الدولة النموذج؟، صحيفة الحياة اللندنية، ١ مايو، ٢٠٠٧م.

[٢٣] راشد الغنوشي، نموذج حزب العدالة والتنمية، مقال منشور على موقعه الشخصي، بتاريخ ٩ سبتمبر، ٢٠٠٨م.

[٢٤] انظر: جهاد الزين، مسؤولية أردوغان بعد الانتصار تطوير النموذج التركي، صحيفة النهار اللبنانية، ٢٥–٧–٢٠٠٧م، وعبد الله تركي، الإسلام والحداثة، مرجع سابق، ص٣٩٤.

[٢٥] راشد الغنوشي، العدالة والتنمية .. تجاوز أم تطور؟، موقع إسلام أونلاين، ١٦ مايو، ٢٠٠٤م.

[٢٦] انظر لاستيضاح ذلك: رضوان السيد، تركيا الدولة وتركيا الأمة والدور المتحول، صحيفة الحياة اللندنية، ٧ أبريل، ٢٠٠٩م.

الأولى: أنه كانت هناك أجواء إسلامية سابقة ساعدت في تبلور واستقرار "الإسلام المعتدل"، "فقيادة الجيش التي تولت إدارة دفة السياسة فعليًّا حتى سنة ١٩٨٣م، لم تكن تخفي اعتمادها على الدين بوصفه إحدى وسائل تثقيف الشعب، وما لبث مفهوم تركيبة تركية – إسلامية تربط القومية التركية بالإسلام المعتدل بوصفها قاعدة أيديولوجية للدولة التركية أن أصبح منطلقًا غير رسمي لإعادة بناء الدولة والمجتمع بعد الانقلاب" [٢٧] على نجم الدين أربكان أواخر التسعينيات.

الثانية: أن تحديد مضمون هذا الإسلام المعتدل يخضع لنقاشات عدة وانتقادات أيضًا من قبل العديد من الإسلاميين [٢٨].

٣– العلاقة بين الدين والدولة

ظل الحزب ينفي – باستمرار – كونه "حزبًا إسلاميًّا"، ويؤكد على أنه يضم نُخَبًا محافظة، ويتبنى خطابًا عصريًّا وسياسة تحديثية، لكن هوية الحزب ظلت حاضرة على الدوام في النقاشات السياسية والفكرية داخل تركيا وخارجها، وتتأرجح بين من يُغلِّب جذوره الإسلامية، ومن يركِّز على سياسات الحزب ورؤاه التي يصرح فيها باحترامه للعلمانية. ومن هنا كانت العلمانية مثار جدل كبير في الكتابات عن الحزب والنموذج التركي، سنأتي عليه في المقاربات، ولكن المؤكد أن شكل العلاقة بين الدين والدولة مع حزب العدالة والتنمية شكّل مثار إعجاب، فاعتُبرت "نموذجًا يوازن بين الطموحات العلمانية والدينية" [٢٩]، و"يسود اعتقاد واسع بين الباحثين في الشأن التركي أن المجتمع التركي حقق بالفعل توازنًا حقيقيًّا بين الهوية العلمانية للدولة وانتمائها الحضاري بعد فشل السياسات التغريبية القمعية" [٣٠].

ولا تعني العلمانية في تركيا فصل الدين عن الدولة كما في أغلب الدول الغربية، فقد حرصت الجمهورية الكمالية على أن تسير على خطى اللائكية الفرنسية التي تسعى لإخضاع الدين لسلطة الدولة ومؤسساتها، الأمر الذي أحدث الكثير من الصدام بين الدولة والدين، فالعلمانية هنا "تمثل رؤية تسعى إلى خصخصة العامل الديني وإقصاء جميع الرموز والسلطات والمنظمات الدينية من الحياة العامة واستنباط القوة السياسية من المبادئ الأخلاقية الدنيوية" [٣١]. وهنا يتمثل الإنجاز الذي قام به حزب العدالة والتنمية، وهو إعادة تعريف العلمانية، و"نَقْل النظام من العلمانية الأولى الفرنسية الطابع (أي

---

[٢٧] هاينتش كرامير، تركيا المتغيرة تبحث عن ثوب جديد، مرجع سابق، ص١٢٠.

[٢٨] بمن فيهم بعض الأتراك أنفسهم، مثل محمد خيري قيرباش أوغلو، الذي يقدم انتقادات شديدة إلى الحركة الإسلامية في تركيا وإلى حزب العدالة، ويخلص إلى القول: "لا يجوز اعتبار منطلق حزب العدالة والتنمية منطلقًا إسلاميًّا بمجرد انبثاقه من رحم تجربة أحزاب تبنت المرجعية الإسلامية". محمد خيري قيرباش، الحركة الإسلامية السياسية التركية في الميزان، (ضمن كتاب: الإسلاميون والحكم ..)، مرجع سابق، ص٣٧٧.

[٢٩] كما صرّح بذلك إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الإسكندرية في حوار مع مجلة دير شبيغل الألمانية، ونشر موقع "محيط" تقريرًا عنه بتاريخ ٢١–٨–٢٠١٠.

[٣٠] السيد ولد أباه، العلمانية التركية والمأزق السياسي الراهن، صحيفة الشرق الأوسط، ١١ مايو، ٢٠٠٧م.

[٣١] جلال ورغي، الحركة الإسلامية التركية، مرجع سابق، ص٢٩–٣٠.

الصدام بين الدولة والمؤسسة الدينية) إلى العلمانية الثانية الأمريكية الطابع، والتي تجعل الحريات الدينية أساسًا من أسس العلمانية الديمقراطية" [٣٢]، وقد سماها البعض "العلمانية المؤمنة" [٣٣]، وإن كان الغنوشي يستنكر تلك التسمية، ويعتبر أن أن كل ما يحاوله التيار الإسلامي بعد تجارب مريرة مع تلك العلمانية الديكتاتورية هو إعادة تعريفها من خلال تأكيد أن جوهر العلمانية يتمثل في الحرية والديمقراطية ومنها الحرية الدينية" [٣٤]. فالحزب قدّم – بهذا – صيغة توافقية تقوم على فكرة الحل الوسط التاريخي الذي يحترم عقائد الإسلاميين وحقهم في التعبير، دون أن يهمل اعتماد علمانية تقبل قواعد الديمقراطية والتعددية [٣٥]، وهو ما عبر عنه فيصل مولوي (الأمين العام للجماعة الإسلامية في لبنان سابقًا) بالقول: حزب العدالة "نجح في مكافحة العلمانية المحاربة للإسلام، وطرح في مقابلها (علمانية خاصة به) تقف في موقع المحايد بالنسبة للإسلام" [٣٦].

٤ – المنحى العملي والبرغماتية

المنحى العملي والبرغماتي لحزب العدالة والتنمية يثير إعجاب الإسلاميين وغيرهم، بل إن بعضهم أحال نجاح الحزب إلى "برغماتيته" [٣٧]، فالنموذج الذي قدمه الحزب "لقي قبولاً بين الناس، ذلك أنه لم يخاطب الجماهير بلغة الوعظ والإرشاد،

---

[٣٢] جهاد الزين، مسؤولية أردوغان، مرجع سابق. ويضيف: "هذا النموذج الذي أعرف أن بعض قادة حزب العدالة والتنمية معجَبٌ به وعلى رأسهم عبد الله غول".

[٣٣] انظر مثلاً: عبد الله تركماني، الإسلام والحداثة السياسية في التجربة التركية، (٢٠٠٦م)، مرجع سابق، ص٤٠٢، ومقاله عن: العلمانية المؤمنة في تركيا، صحيفة المستقبل اللبنانية، ٣٠ أبريل، ٢٠٠٧م، وغسان العطية في حلقة نقاشية عن "نشاط تركيا الجديدة والشرق الأوسط" نظمتها "تيسيف" في إسطنبول أواخر سنة ٢٠٠٩م. ومن المهم أنه كان هناك حديث سابق – قبل وصول حزب العدالة والتنمية إلى السلطة – عن "أسلمة النزعة العلمانية" في الدولة خلال عقد التسعينيات، و"كانت جماعة من المثقفين المحافظين عرفت باسم (بيت المثقفين) بادرت للمرة الأولى في أوائل السبعينيات إلى تطوير هذا المفهوم السياسي – الفلسفي، وكان الهدف الرئيسي لهذه العلمانية المطعَّمة بالإسلام – بوصف مبسط بعض الشيء – متمثلاً بإيجاد هوية سنية غير قابلة للالتباس مصحوبة بكل الحرية الشخصية المتوافرة في الديمقراطية الغربية، مع جرعة قوية من القومية والكبرياء التركيتين المضافتين تحقيقًا للتضامن". انظر: هاينتس كرامير، تركيا المتغيرة تبحث عن ثوب جديد، مرجع سابق، ص١٢٠، وقد صدرت طبعته الإنجليزية سنة ٢٠٠٠م.

[٣٤] راشد الغنوشي في مقالَيْه: العدالة التركي .. تجاوز أم تطور؟، مرجع سابق. و: نموذج حزب العدالة والتنمية، مرجع سابق.

[٣٥] انظر: كمال حبيب، الدين والدولة في تركيا: صراع الإسلام والعلمانية، القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٩م.

[٣٦] انظر كلامه ضمن تقرير بعنوان "قوى إسلامية: تجربة نموذجية للعدالة التركي"، موقع إسلام أونلاين، ٢٣ يوليو، ٢٠٠٧م.

[٣٧] كما فعل أبو العلا ماضي زعيم حزب "الوسط" المصري. والتركيز على برغماتية الحزب الشديدة جاء أيضًا في: عزمي بشارة، العرب وتركيا، قناة الجزيرة، برنامج "في العمق"، بتاريخ ٢٨-٦-٢٠١٠، وعبد الله القفاري، هل يمكن استنساخ النموذج التركي؟، صحيفة الرياض، ٣ سبتمبر، ٢٠٠٧م، وأسامة الغزالي حرب، نجم تركيا الساطع؟، القاهرة: مجلة السياسة الدولية، عدد ١٨١، يوليو، ٢٠١٠، الافتتاحية.

ولكنه بنى مشروعه ورصيده على السعي الدؤوب لنفع الناس وتلبية احتياجاتهم" [٣٨]، كما أن "غلبة الروح العملية على المجادلات النظرية الأيديولوجية جعل حركة التطور لدى الحزب يسيرة"، فأعاد ترتيب الأولويات الإسلامية، "وأن الأولوية ليست للإسلام شعارًا، وإنما لإسلام الإنجاز عدلاً ونظافةَ يدٍ ورحمة وثروة وخدمات" [٣٩]. وعلى هذا "فقادة العدالة أيقنوا حين أسسوا حزبهم الجديد أنّ إصرارهم على الشعارات والعناوين ذاتها سيقودهم دومًا إلى الطريق المغلق، وستدور التجربة الإسلامية التركية في الحلقة المفرغة ذاتها، فقاموا بقلب الطاولة وتغيير أوراق اللعبة كاملة، وقطعوا المسافة المتبقية من الأيديولوجيا إلى البراغماتية، مخالفين أستاذهم الذي علق في منتصف الطريق!" [٤٠]

٥- إنجازات التحول السياسي والاقتصادي الداخلي

شكّلت مسألة التحول الاقتصادي والسياسي الداخلي عاملاً مركزيًّا في جلِّ الكتابات العربية عن النموذج التركي، التي خاضت في تفاصيل وإنجازات أو نجاحات حزب العدالة والتنمية، سواءٌ لجهة الإصلاحات السياسية الديمقراطية وتعديل القوانين من أجل مزيد من الحريات وحقوق الإنسان والانفتاح على الأقليات، أم لجهة الإصلاحات الاقتصادية والسياسة الاقتصادية التي يتبناها والتي وُصفت بأنها سياسة ليبرالية، فهو قد أطلق برنامجًا إصلاحيًّا ركز فيه على الإصلاح الهيكلي وتحرير الاقتصاد، بعد أن كان اقتصادًا شبه موجَّه ومليئًا بالعقبات والعراقيل والفساد والمحسوبية واضطراب النقد، بحيث جرى النمو السريع والمضطرد، فضلاً عن محاربته للفساد. يجادل فهمي هويدي [٤١] – مثلاً – لإثبات أن نجاحات الحزب في الداخل كانت نقطة الانطلاق لنجاحات الخارج، ويستعرض نجاحات الحزب في البلديات، ببعض التفصيل وبالأرقام، ويشيد رضوان السيد في ثلاثة مقالات متفرقة بالازدهار الاقتصادي الذي حققه الحزب على المستوى الداخلي [٤٢]، بل إن جهاد الزين في سياق حديثه عن النموذج التركي يستعيد تسمية شمعون بيريز لقيادة حزب العدالة والتنمية بـ"الاقتصاديين الجدد" [٤٣]، في حين يسمي صادق جلال العظم إسلام هؤلاء بأنه "إسلام البزنس" وأنهم يمثلون النموذج الأعلى له، ويقصد به إسلام الطبقات الوسطى والتجارية والأسواق المحلية والإقليمية والمعولمة.

ومن الإصلاحات الداخلية التي كانت محطَّ جذب كذلك: التصالح مع المجتمع الداخلي بفئاته وتكويناته المختلفة، فقد تبنى الحزب سياسة منفتحة مكّنت الأقليات من التعبير عن نفسها، مما مكّنه من حصد ٦٠ بالمئة من أصوات الأرمن في

---

[٣٨] فهمي هويدي، تركيا نموذج لمكر التاريخ، .

[٣٩] الغنوشي، نموذج حزب العدالة، مرجع سابق.

[٤٠] مُحَمَّد أبو رمان، إسلاميو الشرق في حضرة الأستاذ أردوغان، موقع مجلة "العصر" www.alasr.ws بتاريخ ٢٩-٧-٢٠٠٧م.

[٤١] فهمي هويدي، الصعود التركي ليس معجزة، مرجع سابق.

[٤٢] رضوان السيد، تركيا على مفترق طرق، مرجع سابق، واتجاهات الإسلام التركي ومشكلات الفهم والاستقبال، صحيفة الحياة اللندنية، ٥ أغسطس، ٢٠٠٨م، والانتخابات التركية والتجربة التركية، الحياة، ٢٤ يوليو، ٢٠٠٧م.

[٤٣] جهاد الزين، مسؤولية أردوغان، مرجع سابق.

انتخابات ٢٠٠٧م، كما صوتت الغالبية من الأقلية اليونانية لصالحه، وعبَّر رجال دين مسيحيون عن دعمهم له، وحقق مكاسب في المسألة الكردية دفعت ٥٤ بالمئة من الأكراد لأن يصوتوا له عام ٢٠٠٧م، وبهذا حافظ على مقومات الدولة التركية ومكتسباتها وحفظ لها تماسكها [٤٤].

٦– السياسات الخارجية وركائزها:

السياسات الخارجية لتركيا حزب العدالة والتنمية كان لها الدور الأبرز جماهيريًّا في صناعة النموذج وتسويقه، كما كانت مثار إعجاب من قِبَل كل الكتابات التي تناولت النموذج التركي، فهي قد تحولت من الانكماش الذي وسمها لسنوات طويلة إلى ما سمي بـ"الدبلوماسية النشطة"، فقد ظلت تركيا لنحو ٨٠ عامًا منخرطة في الفضاء الأوربي الغربي، ومديرةً ظهرها إلى العالم العربي حتى جاء حزب العدالة والتنمية فتبنى سياسة تقوم على الاستمرار في التعاون والانخراط في المنظومات الدولية، وعلى حفظ مصالح تركيا القومية في المنطقة، الأمر الذي اقتضى إعادة قراءة تركيا لواقعها ومكانتها ودورها في ظل موازين القوى الإقليمية والدولية، وعودة تركيا إلى أن تكون جزءًا من عمقها التاريخي والجغرافي والحضاري من دون الانحياز لطرف دون آخر، وأن تكون في الوقت نفسه دولة حديثة ذات اقتصاد قوي وديمقراطية راسخة ومستقرة [٤٥]، وهذا أدى بها إلى التصالح مع محيطها بشكل ظهرت أماراته المتعددة وآثاره على المنطقة وقضاياها الكبرى وخلافاتها، وساهم في جَعلها الدولة النموذج.

٧– الانفتاح على العالم والعلاقة مع الغرب

لا شكَّ أن الانفتاح التركي على الغرب كان أحد أبرز ملامح النموذج، وترك تأثيرًا كبيرًا في بقائه ونجاحه، فتركيا حليفٌ قويٌّ لأمريكا، وجزء من منظومة الغرب نفسه، وعضو في حلف شمال الأطلسي، والدولة التركية حليفة لإسرائيل، وهو ما أشاد به أوباما في خطابه في اسطنبول ٢٠٠٩م، ومن قبله كلنتون وغيره، والإسلام في تركيا يعتبر نفسه جزءًا من الغرب الأوربي على وجه الخصوص، ويتشاطر معه كثيرًا من القيم ونظام الحياة، على عكس الإسلام في العالم العربي والإيراني المولع بإثبات تمايزه واختلافه عن الغرب إن لم يصل إلى العداء له، وفي هذا السياق يغدو ذا دلالةٍ حرصُ الحزب على انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوربي، الأمر الذي شكَّل علامة بارزة في إعجاب النخبة العربية بمختلف أطيافها بالنموذج

[٤٤] انظر على سبيل المثال: جلال ورغي، الحركة الإسلامية التركية، ص٦٢، وسعيد الربيعي، النموذج التركي في الصالح مع المجتمع، صحيفة المؤتمر العراقية، ١٢–٨–٢٠٠٧م.

[٤٥] ظهرت بوادر إعادة تعريف الدور التركي في المنطقة قبل حزب العدالة والتنمية، انظر لذلك: هاينتس كرامير، تركيا المتغيرة، مرجع سابق، ص٣٧٤. وانظر لاستيضاح الأسس التي تقوم عليها السياسية الخارجية التركية ومهندسها أحمد داود أوغلو: جلال ورغي، الحركة الإسلامية التركية، ص٦٩–٧٣، ومحمد نور الدين، من جورجيا إلى قمة دمشق إلى بريفان: النموذج التركي يستكمل نفسه، مرجع سابق.

التركي، كما أنه شكّل "مفارقة تركية" بالنسبة لبعض العلمانيين [٤٦]، حين يسعى الحزب الإسلامي سعيًا حثيثًا لضم تركيا إلى أوربا، في حين أن الجيش الذي أسسه أتاتورك (أبو الأتراك) وحامي حمى الجمهورية العلمانية يبطئ الخطى في مسيرة الانضمام تلك ويعارضها!.

ومسألة الانضمام شكّلت أهمية للنموذج لجهة أنها دفعت وسهّلت القيام بالإصلاحات المطلوبة للداخل التركي وللاتحاد الأوربي حتى يحقق شروط الانضمام، وسلّطت التركيز على التحولات السياسية والاقتصادية التي تجري في تركيا، وأنها بعثت أملاً في دخول بلد مسلم للاتحاد وسط الإحساس بالعجز والصور السلبية عن الإسلام التي أعقبت أحداث سبتمبر، كما أن ذلك من شأنه أن يجعل من تركيا بوابة العالم الإسلامي على أوربا، وزيادة التبادلات الثقافية والسياسية والاقتصادية [٤٧].

لأجل هذا كله، تقدم التجربة التركية الجديدة نموذجًا لدى الكثيرين "في التصالح مع النفس والدين والتاريخ والآخر، ومع العصر والمستقبل"، و"يغدو الإسلاميون الأتراك أكثر تقدمًا وتلاؤمًا مع العصر والعالَم من العلمانيين والقوميين الأتراك، سواءٌ أكانوا مدنيين أم عسكريين" [٤٨].

ثالثًا: وطأة الأيديولوجيا واختلاف المقاربات

صحيحٌ أن الكتابات العربية عن تركيا تواطأت على الإعجاب بالنموذج التركي والإشادة به، بل يمكن القول أبعد من ذلك: إن "الغيرة قتلتهم" [٤٩]، فاندفعوا إلى تسجيل مواقفهم من التجربة وقراءاتهم لها، تحت تأثير دوافع مختلفة، فانطبع كثير منها بطابع الصراعات الأيديولوجية والسياسية القائمة، الأمر الذي أفرز عددًا من المقاربات للتجربة التركية الجديدة عكست سعة مساحة التأويلات التي أحاطت بالنموذج التركي، واستمراريةَ السجالات الفكرية بين التيارات المختلفة، بالإضافة إلى أن جميعها لم يوفر مناسبة تسجيل الانتقاد والسخرية أحيانًا من النظام العربي القائم هنا أو هناك، ومن الخصم الأيديولوجي في ظل تجاذبات الأفكار، مقارنةً بالتجربة التركية المشرقة.

---

[٤٦] صادق جلال العظم في المرجع المشار إليه قبل.

[٤٧] جاء التركيز على مسألة انضمام تركيا إلى أوربا في كثيرٍ من المقالات، نذكر على سبيل المثال: صادق العظم، وراشد الغنوشي، والسيد ولد أباه، وغيرهم. وانظر مناقشة لتأثيرات هذه المسألة في: مليحة بنلي التونيشيك، كيف ينظر العرب إلى تركيا (٢)، صحيفة النهار اللبنانية، ٢٧-٦-٢٠١٠، ورضوان السيد، تركيا على مفترق طرق، مرجع سابق.

[٤٨] رضوان السيد، في مقالَيه: الانتخابات التركية والتجربة التركية والإسلام والعالم المعاصر، مرجع سابق، و: تركيا والإسلاميون والغربة الغربية، الحياة اللندنية، ١٢، مايو ٢٠٠٧م.

[٤٩] تعبير "قتلتني الغيرة" استعمله غسان شربل في مقاله: لا تتركنا أوغلو، صحيفة الحياة اللندنية، ٢-١١-٢٠٠٩م.

وعند التدقيق يمكننا التمييز بين مقاربتين:

١ – المقاربة السياسية والاستراتيجية

وهي مقاربة تعتمد على المنطق السياسي والاستراتيجي في التحليل، المستند إلى الممارسة السياسية ووقائعها وأهدافها وغاياتها وتحالفاتها وعلائقها بمحيطها وموازين القوى. أو يمكن القول: إنه التحليل الذي يتناول النموذج التركي بما هو عليه في الواقع، لا بما يمثله.

وهنا يمكننا أن نميز بين لونين من المقاربة، اللون الأول هو مقاربة الأنظمة العربية، فهناك أنظمة تخشى من التمدد الإيراني رأت في الدور التركي الجديد معادِلاً إقليميًّا وقوةَ نجاة قادرة على تحجيمه أو موازنته [٥٠]، وهناك مجموعة أخرى، مثل سوريا والعراق مثلاً، ترى في تركيا شريكًا اقتصاديًّا وبوابة إلى العالم من خلال تحالفاتها ومكانتها ودورها، فضلاً عن استثمارات تركيا المتزايدة في مصر، ونظرة بعض دول الخليج العربي إلى تركيا على أنها مكان مناسب للاستثمارات الخارجية المباشرة، وقد وقّعت تركيا اتفاقيات تجارة حرة مع كل من مصر وسوريا والأردن، وبدأت تنشط الروابط الاقتصادية بين تركيا والشرق الأوسط [٥١].

واللون الثاني تلك المقاربات والتحليلات الصادرة عن المحللين والباحثين في الشأن التركي، الذين يقدمون تحليلات سياسية واستراتيجية للنموذج التركي وفق منطق "الممارسة السياسية". من ذلك على سبيل المثال تلك القراءة التي ترى أن ما تغير بعد ٢٠٠٢م في تركيا هو القراءة الصحيحة لواقع تركيا ومكانتها ودورها في ظل موازين القوى الإقليمية والدولية، وأن المعادلة الجديدة تتمثل في: "كيف نحافظ على عوامل القوة المستقاة من التحالفات الدولية والإقليمية السابقة مع نسج علاقات إيجابية جديدة مع مَن كانوا يُعتبرون خصومًا بل أعداء بالأمس؟". وهذا عنى دخولاً في عمق المجال الحيوي لتركيا: جغرافيًّا وحضاريًّا وتاريخيًّا، وفق سياسة تبنت أمرين: الانتماء للعمق الحضاري، وبناء دولة حديثة.

سلطت الأحداث التركية في السنوات الأخيرة الأضواء على السلوك التركي الذي كان خارج الاستقطابات وعلى مسافة واحدة من الجميع، مما أهَّله للعب دور الوسيط في مواقع عدة. وأهم ما يميز هذا السلوك هو سياسة "تعدد الأبعاد" التي ينتهجها، والتراجع عن سياسات سابقة خاطئة. فمثلاً، في التطورات التي تفجرت في القوقاز بعد هجوم جورجيا على أوسيتيا الجنوبية والرد الروسي العنيف،لم تَنْحز تركيا حزب العدالة والتنمية إلى جورجيا، على خلاف تركيا الأمس التي

---

[٥٠] يقارن أحدهم بين النموذج التركي والنموذج الإيراني، فيجعلهما على طرفي نقيض في الطبيعة والدور. انظر لذلك: علي حسين باكير، الصعود الإقليمي: النموذج التركي في مواجهة النموذج الإيراني، موقع الشرق الأوسط (www.middle-east-onlin.com) بتاريخ ١٣-١-٢٠٠٩م.

[٥١] انظر: مليحة بنلي التونيشيك، كيف ينظر العرب إلى تركيا، (٢)، مرجع سابق.

كانت جزءًا من تحالف ثلاثي يضم كلاً من جورجيا وأذربيجان، بل ذهب أردوغان للقاء زعماء روسيا ثم جورجيا ثم أذربيجان للترويج لـ "منتدى الاستقرار والتعاون في القوقاز". كما أن تركيا مدت اليد إلى أرمينيا عبر زيارة الرئيس التركي التاريخية إلى بريفان لحضور مباراة منتخب بلاده مع نظيره الأرمني بكرة القدم [٥٢].

٢ – المقاربات الفكرية والأيديولوجية:

المقاربات الفكرية والأيديولوجية هنا هي تلك التي تتناول النموذج التركي بما يمثّله لا بما هو عليه، وهنا تدور النقاشات الفكرية وتحتدُّ أحيانًا حول كيفية قراءة التجربة التركية وأبعادها الفكرية والدروس المستخلصة منها، ويكاد الجدل كله يتمركز على مسألة الصراع بين الفكرتين العلمانية والإسلامية، فقد أثار النموذج التركي الجدل من جديد حول جدوى العلمانية في فضائنا العربي والإسلامي وفاعليتها.

يقرأ الليبراليون النموذج في تركيا من زاوية التحول الديمقراطي وحداثة تركيا وعلمانيتها وعلاقاتها مع الغرب وعضويتها في المؤسسات الغربية، وبهذا المعنى تشكل تركيا نموذجًا لدول المنطقة [٥٣]، وهنا قدم النموذج التركي درسًا على إمكانية مشاركة الإسلاميين في العملية الديمقراطية بنجاح. بل إن برهان غليون يذهب إلى أن حزب العدالة والتنمية حزب ليبرالي يستند على خلفية إسلامية وليس العكس، ولذلك هو يتصرف بصفته حزبًا ليبراليًّا، ويتبنى سياسة اجتماعية متأثرة باقتصاد السوق، وله علاقة قوية بالطبقات الاجتماعية التي تؤكد توجهاته الإسلامية [٥٤].

وتتمحور مقاربة العلمانيين عامة حول أن العلمانية هي الكلمة المفتاحية في النموذج التركي، وهنا يتم نسبة النجاح إلى علمانية النموذج، وأنه يعبر – بحسب صادق جلال العظم – عن "لحظة نضج للتجربة التركية مع الجمهورية الكمالية ومع الدولة العلمانية ومع الآليات الديمقراطية ... إنها لحظة نضج ليس للعلمانية التركية وآلياتها الديمقراطية فقط، بل ولإسلامها السياسي أيضًا"؛ لأن "العلمانية قامت على امتداد القرن العشرين بدور حاسم في المجتمع التركي يشبه إلى حد

---

[٥٢] انظر مثل تلك المقاربات في: محمد نور الدين، من جورجيا إلى قمة دمشق إلى بريفان، مرجع سابق. وميشال نوفل، عودة تركيا إلى الشرق (الاتجاهات الجديدة للسياسة التركية)، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٠م، وأسامة الغزالي حرب، نجم تركيا الساطع؟، مرجع سابق.

[٥٣] كما نجد ذلك في مقالات رضوان السيد مثلاً.

[٥٤] برهان غليون، نموذج الإسلام الإيراني تراجع لمصلحة النموذج التركي، حاوره صلاح الدين الجورشي، صحيفة الغد الأردنية، ١٤-٦-٢٠٠٨م.

كبير الدور الحاسم الذي قامت به الليبرالية في أبرز المجتمعات الأوربية الغربية حتى الحرب العالمية الأولى" [٥٥]، ويذهب علي حرب إلى القول: "هم في النهاية ثمرة النظام الجمهوري العلماني والديمقراطي" [٥٦]. بل إن صقر أبو فخر يذهب أبعد من ذلك إلى القول: "الديمقراطية بلا علمانية كالعلمانية بلا ديمقراطية، لا بد أن يؤديا إلى شكل من أشكال الاستبداد الشمولي أو الحكم العسكري" [٥٧]، ليستنتج العظم أن "تركيا قد نجحت في تحقيق دمج تطوري لقيم الديمقراطية بقيم العلمانية في نسق دستوري وسياسي واحد عبر مسار تاريخي متعرج".

حاول بعض العلمانيين قطع الصلة بين حزب العدالة والتنمية وبين الحركة الإسلامية، وسلطوا الضوء على الاختلافات بينه وبينها للقول: إن الحالة التركية مختلفة.

أما الإسلاميون فقد تحمسوا كثيرًا للحزب وشعروا بنشوة عارمة واستعادوا ثقتهم بأنفسهم؛ إذ اعتبروه جزءًا منهم [٥٨]، كما رأوا فيه إشارة إلى عودة تركيا إلى الحظيرة الإسلامية، وأثبت توافقَ الإسلام مع الديمقراطية في تجربة عملية قائمة، وأنهم إذا أتيحت لهم الفرصة فسيطبقون النموذج نفسه، بل إن مهدي عاكف (المرشد العام للإخوان المسلمين سابقًا) رأى في النموذج قدرة الأحزاب الإسلامية على تحقيق التنمية الشاملة.

وقد رأى راشد الغنوشي في النموذج هزيمةً للعلمانية وإفلاسًا لمشروع العلمنة والتغريب في تركيا، ودافع باستماتة عن "إسلامية" النموذج، وخاض سجالات مع العلمانيين حول مصدر نسبة الفضل في نجاح النموذج التركي، وعبر أكثر من مقال [٥٩]، في حين اعتبر فهمي هويدي أن "نسبة الإنجاز إلى العلمانية فيه الكثير من التبسيط والتغليط" [٦٠].

---

[٥٥] صادق جلال العظم، الدولة العلمانية والمسألة الدينية: تركيا نموذجًا، مرجع سابق. وانظر: السيد ولد أباه، العلمانية التركية، مرجع سابق.

[٥٦] علي حرب، تواطؤ الأضداد، مرجع سابق، ص٢٥٢. وانظر نحوه في: عبد الله القفاري، النموذج التركي: حصاد متصالح مع الحداثة، صحيفة الرياض، ٢١-٦-٢٠١٠.

[٥٧] صقر أبو فخر، التحول التركي الكبير: خرافة "العثمانية الجديدة"، ضمن كتاب جماعي: عودة تركيا، بيروت: المركز العربي للمعلومات، ٢٠٠٩، وانظر مناقشة لتلك الفكرة ونقدها في: فهمي جدعان، في الخلاص النهائي، عمان: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٧م، ص٣٤٨-٣٤٩.

[٥٨] انظر مثلاً التقرير الذي نشره موقع إسلام أونلاين بُعيد انتخابات ٢٠٠٧م، بعنوان: "قوى إسلامية: تجربة نموذجية للعدالة التركي"، ٢٣ يوليو، ٢٠٠٧م.

[٥٩] انظر: راشد الغنوشي، هل هناك فرصة للنموذج التركي في العالم العربي، الجزيرة نت، ١٦-٨-٢٠٠٧م، و: العدالة التركي: تجاوز أم تطور؟، مرجع سابق، و: نموذج حزب العدالة والتنمية، مرجع سابق، وانظر: ياسر الزعاترة، المقارنة الخاطئة بين التجربة التركية والعربية في الديمقراطية، الجزيرة نت، ٣-١٠-٢٠٠٤م.

[٦٠] فهمي هويدي، الصعود التركي، مرجع سابق.

ويرجع الاختلاف في قراءة هوية الحزب إلى اختلاف زوايا النظر، فالحزب نفسه يصرح بأنه ملتزم بالعلمانية وينفي أنه حزب ديني أو إسلامي، وهو ما اعتبره البعض صدمة من الحزب للإسلاميين، في حين رأى الإسلاميون في مثل تلك التصريحات سياسةً اضطرارية فرضتها أجواء العلمانية التركية العصيَّة، وأن الحزب في كل أحواله هو نتاج الحركة الإسلامية بزعامة أربكان.

والواقع أن هذا النقاش والجدل يعود إلى نظرتين: تبدأ الأولى منهما من الراهن – وهو وصول حزب إسلامي إلى السلطة في دولة علمانية – وتبني عليه قائلةً إن ذلك دليل على توافق الإسلام مع الديمقراطية، في حين تعود الثانية إلى السياق التاريخي للديمقراطية والعلمانية في تركيا، لتبني عليه بأن الفضل كله يعود إلى العلمانية وسياقاتها وأنها هي التي سمحت بتطوّر أو اعتدال الإسلام السياسي.

وأيًّا ما يكن شكل المقاربة ودقتُها، فإن المؤكد أن تحولاً كبيرًا طرأ على نظرة مختلف التيارات الفكرية إلى تركيا اليوم، أليس عجيبًا أن كلاً من الإسلاميين والقوميين واليساريين العرب الذين كانوا على خصومة شديدة مع تركيا أصبحوا اليوم جميعًا يتحدثون عن "النموذج التركي" بإعجاب وغبطة غير مسبوقتين؟!.

فالإسلاميون الذين طالما نظروا إلى تركيا من زاوية تصفية الخلافة الإسلامية، والعلمانية المتوحشة، والتغريب، والتحالف مع إسرائيل، باتوا اليوم يقارنون – بغبطة ممزوجة بحسرة – بين أحوال تركيا وأحوالهم، وبين الإسلام السياسي فيها وبين الإسلام السياسي في بلدانهم. أما اليساريون العرب فكانوا في خصومة مع تركيا أثناء الحرب الباردة، لكونها عضوًا في حلف الناتو، وحليفًا وثيقًا للغرب في حربه على المعسكر الشيوعي والأفكار الاشتراكية، وتحالفها مع إسرائيل أيضًا. لكن لما تحوَّل اليسارُ العربيُّ (للمفارقة يسمي صادق جلال العظم هذا التحول: تراجعًا إلى خط الدفاع الثاني![61]) إلى مقولات حقوق الإنسان والحريات العامة والديمقراطية والمواطنة وغيرها، لم يجد مَن تتحقق فيه مثل تلك المقولات – ولو نسبيًّا – أفضل من النموذج التركي. أما القوميون العرب فلم يكونوا أقل إدانة لتركيا من هؤلاء، فتركيا عَنَت لهم "الاحتلال التركي المتخلف"، والتتريك، واضطهاد الفكرة العربية ورجالاتها، والخطر القائم والمحيق بالحدود العربية وبعض أراضيها، وبالحقوق المائية، لكنهم اليوم باتوا مُعجَبين بنجاحات القومية التركية التي حققت مصالحها العليا أو بعضها على الأقل، على صعيدي الدولة والأمة، في ظل إخفاقات مزمنة ومأسوية للقومية العربية، فسبحان مغيّر الأحوال.

[61] في مقاله: الدولة العلمانية والمسألة الدينية، مرجع سابق، وقد أفدتُ منه هنا.

خاتمة

هكذا أوضحت هذه الدراسة عمومية الإعجاب بالنموذج التركي، الذي شمل مستويات عدة: الأنظمة والنخب على اختلافها والرأي العام، وأن هذا النموذج تَخَلَّق بعد وصول حزب العدالة والتنمية إلى السلطة سنة ٢٠٠٢م، بفعل عوامل عديدة بحسب مستويات الإعجاب، منها: (السياق العربي) المفعم بالإحساس بالأزمة، وأن ثمة سياسات تركية معينة ساهمت في تغيير صورة تركيا لدى العرب وتَطَلُّع الأنظار إليها باعتبارها نموذجًا مضيئًا في وسط التردي العربي العام، بالإضافة إلى عوامل أخرى كتأثير التغطيات الإعلامية عن تركيا وطبيعتها، والدراما التركية التي استأثرت بالعقول والقلوب فأعادت رسم صورة مختلفة عن تركيا، وهكذا دخل في عوامل جاذبية النموذج اعتبارات سياسية وفكرية ودينية وثقافية، داخلية وخارجية.

وتنوعت عوامل الجذب التي مثَّلت قيمًا إيجابية يطمح إليها المعجبون، مثل التحول الديمقراطي والإسلام المعتدل، والصيغة المتوازنة للعلاقة بين الدين والدولة، والبرغماتية السياسية التي تحقق مصالح عامة، والانفتاح الإيجابي على العالم وغير ذلك.

لكن تنوعت المقاربات للتجربة التركية، التي انطبعت بالخلافات السياسية والأيديولوجية، بحسب اختلاف الناظرين، بين مقاربة سياسية واستراتيجية تقرأ التجربة بما هي عليه، ومقاربات فكرية وأيديولوجية تقرأ التجربة بما تمثله لها وفق مرجعيتها هي وزاوية القراءة. لكن يمكن القول إن ثمة إحساسًا عامًّا بالافتقار إلى مثل تلك التجربة، بالرغم من إدراك خصوصياتها وعدم ملاءمة نسخها أو نقلها لأسباب عديدة.

والحمد لله رب العالمين.